الحياة الاجتماعية في مدينة سمرقند

إعداد الدكتورة أفراح فايق حسن
مديرية تربية ديالى

Social life In the city of Samarkand

Afaih Fayek Hassan
Diyala Education Directorate
E-mail: tahattyi@gmail.com

Abstract

Samarkand is an ancient city that was exposed to woes during its history, as the invaders such as Alexander the Macedonian and Genghis Khan destroyed it several times, but it is like a phoenix bird emitting from the heart of ash every time, it is the second largest city in Uzbekistan, its age goes back to 700 BC, and it was the capital of several empires, it is believed that The word "Qand" means Medina, and Samarkand, meaning the city of Al-Hijr. Muslims opened it in the year 93 AH at the hands of the leader Qutayba bin Muslim Al-Bahli, and she had an important commercial role.

Keyword: social, life, Samarkand

الملخص:

سمرقند مدينة عريقة تعرضت لويلات خلال تاريخها، فقد دمرها الغزاة كالاسكندر المقدوني وجنكيز خان مرات عدة، لكنها كطير العنقاء تنبعث من قلب الرماد في كل مرة، وهي ثاني أكبر مدينة في أوزبكستان، عمرها يعود الى 700 قبل الميلاد، وكانت عاصمة لعدة إمبراطوريات، يعتقد إن كلمة قند تعني مدينة، وسمرقند أي مدينة الحجر، فتحها المسلمون سنة 93هـ على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان لها دور تجاري مهم، أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين وفي كافة أنواع العلوم العقلية والنقلية.

الكلمة المفتاح: الحياة، الاجتماعية، سمرقند

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين.. وبعد:

تعد مدينة سمرقند إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، وصفت بأنها أجل البلدان وأعظمها قدراً وأشدها امتناعاً وأكثرها رجالاً وأشدها بطلاً وأصبرها محارب، ولما أشرف عليها قتيبة بن مسلم الباهلي قال: كأنها السماء في الخضرة وكأن قصورها النجوم اللامعة، قال الشاعر:

ناس في أخرهم جنة... وجنة دنيا سمرقند

تمكن قتيبة بن مسلم من فتح سمرقند سنة 93هـ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86-95هـ)، هذا ما ذكرته المصادر التاريخية التي بين أيدينا.

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على أربعة مباحث سبقتها مقدمة وملخص البحث وتلتها خاتمة وقائمة بأهم المصادر والمراجع، تناول الأول نبذة مختصرة عن جغرافية مدينة سمرقند، بينما جاء المبحث الثاني ليوضح فتوحات المسلمين في مدينة سمرقند، وتعرفنا في المبحث الثالث على جانب من الحياة الاجتماعية العامة لمدينة سمرقند، أما المبحث الرابع فقد أوضحت فيه صوراً من الحياة الاجتماعية في مدينة سمرقند، وخاتمة تناولت أهم النتائج، وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي تم استخدامها بالبحث.

المبحث الاول

نبذة عن جغرافية مدينة سمرقند

أ: التسمية:

أشرت عدد من المصادر الى الأصول التاريخية لاسم مدينة سمر قند، وإنها قد سميت بذلك حينما غزاها أحد ملوك اليمن وهو شمريرعش بن افريقتش[1] فهدمها وقيل: كسر حائطها , وسميت سمر كند، ومنى كند: كسر، ومن ثم عُربت فقيل: سمرقند[2]، وعرفن سمرقند باسم قديم هو (مرقندا)، كما يقال لها في كتب العرب: سُمران[3] , يقل التاريخ: إن سمرقند اسم لملك نصفه إله من ملوك السوفدان، ويضيف التاريخ: إن الاغريق كانوا يسمونها قرقندا[4]، وأطلق عليها الرحالة العرب اسم الياقوتة على ضفاف نهر زارفشان[5]، وكثيراً ما يرد الجزء الثاني من هذا الاسم الذي يشتمل على كلمة إيرانية الشرقية (قند) ومعناه: مدينة في اسماء الأماكن الشرقية، في حين الجزء الأول لم يفسر بعد تفسيراً مقنعاً[6].

ب. موقعها:

تقع مدينة سمرقند على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه[7]، حيث الطول إحدى وتسعون درجة واثنان وخمسون دقيقة، والعرض ست وستون درجة وثلاثون دقيقة[8]، تقع أعلى نهر على نحو من مائة وخمسين ميلاً شرق بخارى على مسافة قصيرة من نهر الصغد الجنوبية على تستر الأرض[9]، في الإقليم الخامس وطولها أثنى عشر فرسخاً[10]، تبعد عن اشرونسة ست وعشرون فرسخاً وعن فرغانة ثلاث وخمسون فرسخاً[11]، وهي مصر الإقليم ولها أثنى عشر رستاقاً[12]، مبنية على شاطئ يعرف بوادي القصارين عليه نواعير تسقي البساتين[13]، وهي واحدة من أقدم مدن العالم تقع ما وراء النهر، وهي ثاني مدن جمهورية أوزبكستان في الاتحاد السوفيتي سابقاً[14].

ج. طبيعتها الجغرافية:

تربة سمرقند من اصح الترب وأيبسها ولولا كثرة البخارات من المياه الجرية في سككهم ودورهم وكثرة اشجار الخلاف بينهم لأضر بهم فرط يبسها، بناءها من طين وخشب مدينة[15]، كانت بحكم موقعها الذي يرتفع عنه الأرض من أكثر المدن نقاءً للجو فكان جوها صحياً بحرياً تحتها ماء غزير في قنوات وجداول تنحدر إليها من الجبال، ومناخها قاري كالمناخ السائد في أسيا الوسطى[16]، ولها نهر عظيم يأتي من بلاد الترك يشبه نهر الفرات يدعى (ناسف) يجري بأرضيها ويعرج بعدها الى بلاد الصغد ومنها الى اشرونسة[17]، ونهرها ينزل من جبال التيم في جنوبها في الاقليم الرابع[18]، ولها قهندز ومدينة وربض، فأما القهندز ففيه الحبس ودار الإمارة عامران، وأما المدينة فلها سور وأربعة أبواب باب الصين من جهة المشرق، وباب نوبهار في جهة المغرب، وباب بخارى في جهة الشمال، وباب كش في جهة الجنوب، ولها أسواق ومساكن وماء حار يدخل إليها في نهر من رصاص وهو نهر بنيت له مسنات عالية من الحجارة يجري عليها ماء من الصفارين حتى يدخل من باب الكش ووجه هذا النهر رصاص كله وذلك إن حول المدينة خندق عظيم قد تسلق لأنه استعمل طينه في سور المدينة، يجري الماء عليها الى المدينة[19].

أما سغد سمرقند فهو نهر تحف به الأشجار المثمرة بالفواكه والأزهار مشتبكة بعضها ببعض ممتدة مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها[20]، ونظراً لوفرة المياه فيها فقد تميزت بكثرة نعمها وخصوبة أرضها، لهذا كانت فيها مختلف أنواع الفواكه[21]، ولها جبل صغير يعرف بكوجكن يمتد طرفه الى سور سمرقند وهو مقدار نصف ميل في الطول ومنه أحجار بلدهم والبلد كله ومحاله وسككه غلا قليلاً مفترش بالحجارة ومياههم من وادي الصغد[22].

د. السكان:

من وجهة النظر العرقية فإن تلك المدينة التي كان يقطنها في أول الأمر شعوب آرية لم تلين أن تسربت إليها أعداد غفيرة من العنصر التركي فيها وأصبح معها عدد متكلمين بلهجاتها في المدينة غي الآونة الأخيرة لا يقف عند حد الجماعات البدوية وحدها بل شمل كذلك الشطر الأكبر من سكان المدن على وجه العموم، فقد شغلت مدينة سمرقند المكانة الأولى من مدن ما وراء النهر

خضعت لسكان الترك بسبب خصوبتها وكثرة سكانها[23]، نزلت جماعة الحصون في مدينة سمرقند في القرن الأول الهجري وتحضروا على مر الزمان وسموا بالهون البيض وأسماهم الساسانيون الهياطلة، عرفوا في الكتب العربية بهذا الاسم، جلبهم الفرس الى المشرق على شكل جند وكثر عددهم وبرزوا وأثبتوا كفاءتهم في الحرب وفي الجندية وتدرجوا حتى وصلوا الى قادة العسكر، لم يظهر على ترك إلا في القرن السادس الميلادي، والأتراك قدموا من شرق آسيا وأقاموا في وسط مدينة سمرقند وانتشر الإسلام بينهم بعد أن حكم السامانيون هذه البلاد، وكانت هذه الأقوام تسمى الأتراك، وأقاموا الدولة القره خطائين المسلمة فقضت على الدولة السامانية، وبدلاً من أن يقوموا هؤلاء الأتراك المسلمون بحماية بلاد الإسلام من خطر الكفار في الشمال والشرق إذ بهم يقومون بشن حملات عدوانية على بلاد الإسلام[24]، أما عدد سكان سمرقند لا يتفق بالطبع مع فكرتنا عن مدينة في قدرها وذلك إن شطراً كبيراً من مساحة سمرقند كانت تشغله البساتين، فقد كان كل منزل يضم بستاناً، وكان الناظر من أعلى القلعة لا يستطيع رؤية جانبها من خلال الأشجار[25]، ويقدر عدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة[26].

المبحث الثاني

فتوحات المسلمين في مدينة سمرقند

أ: فتح مدينة سمرقند:

عُد فتح مدينة سمرقند المرحلة المهمة التي فرض فيها قتيبة[27] السيادة الاسلامية على حوض نهر جيحون وتوج فيها عمله بالاستيلاء على مدينة سمرقند أعظم المدائن في بلاد الصغد، وكان طرخون ملك الصغد قد أرسل الى قتيبة بعد انتصاره في معركة بخارى سنة 90هـ يطلب الصلح[28]، فأجابه قتيبة وصالحه وعاد قتيبة[29].

وفي سنة 91هـ غدر نيزك صاحب قاعة بادغس وتأليبه ملوك طخارستان ورتبيل ملك سجستان على المسلمين، وقد نكل به قتيبة سجستان من الشمال وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان، وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه الى نيزك في غدره، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح فقبل قتيبة وصالحه وانصرف عائداً الى مرو، وترك عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثي عاملاً على سجستان[30].

وتوج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند وهي أعظم مدائن ما وراء النهر، والذي دعاه الى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة 90هـ، وامتنع عن دفع ما كان عليه، فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح، ولعزمه على فتح سمرقند بالقوة وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم الباهلي[31] في عشرين ألف مقاتل، وأمره بالسير أمامه ثم تبعه هو في أهل خوارزم وبخارى وضرب عليها الحصار وقال: " إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين "، متيمناً بقول الرسول ﷺ عندما حاصر خيبر، فلما رأى أهل سمرقند إن مدينتهم قد حوصرت خافوا طول الحصار فكتبوا الى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثونهم ويحرضونهم على المسلمين وقالوا لهم: إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم، استجاب هؤلاء الملوك لنداء سمرقند واختاروا عدداً من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال وأمروهم أن يفاجئوا قتيبة في معسكره وهو مشغول بحصار سمرقند، ولكن قتيبة كان يقظاً باثاً عيونه ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت، فعلم بخبرهم وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم فبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم[32].

فلما رأى أهل الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا وصيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المناجيق على المدينة واستطاع إحداث ثلمة فيها وصاح صيحة الأسد: حتى في سمرقند يعشش فيك الشيطان، أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم واشتد القتال وأمرهم أن يبلغوا ثلمة المدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا، فأرسل الصغد الى قتيبة فقالوا: انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة... فصالحهم من الغد على ألفي ألف

ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلو له المدينة فلا يكون فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج[33].

دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ولم يعبأ بما خوفه منها حيث قال له أحدهم مدعياً نصيحته: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناماً من أحرقها أهلكته، فقال له: أنا أحرقها بيدي، فأمر بإشعال النار وكبر ثم أحرقها، فوجدوا من باقيا مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال[34]، وتم هذا الفتح العظيم سنة 93هـ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86–95هـ)' ولما اشرف عليها قتيبة قال: كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم اللامعة، وكأن أنهارها مجرة، وقال الشاعر:

الناس في أُخراهم جنة... وجنة الدنيا سمرقند[35]

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين حريصون على دعوة الناس للإسلام وإخراجهم من الظلمات الى النور، فكان يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى ويترك فيها العلماء والفقهاء، وترك في سمرقند جماعة من الدعاة منهم الضحاك بن مزاحم السلمي[36]. لتعليم الناس ليستوعبوا الدين الإسلامي، وبذل جهداً في نشر الإسلام وأصبحت سمرقند وبخارى مركزاً للثقافة العربية ونشر الإسلام في آسيا الوسطى[37].

أ: انتقال القبائل العربية واستقرارها في مدينة سمرقند:

يقصد بأماكن الوجود هو مراكز استقرار العرب والقبائل العربية في مدينة سمرقند، انتشرت هذه القبائل في المدينة لتجد لها مركزاً ومستوطناً ومستقراً لها بها، وقد كانت الصغد واحدة من أهم مراكز الاستقرار العربي، إذ استقر في سمرقند عرب من محارب وشيبان والازد وباهلة وطيء[38]، وسكن في سمرقند قوم من بكر بن وائل يعرفون بالسباعية[39] وسكنوا رساتيق عدة فيها وكانت لهم ولايات ودور ضيافة، وصفوا بأنهم ذوي أخلاق حسنة[40].

إن للوجود العربي له أثراً على الطابع الحضاري والعمراني للمدينة فأخذت أحيائها ومداخلها ومساجدها تحمل أسماءً عربية تدل على قوة التأثير حضارة الغالب على المغلوب، إذ هي في الوقت نفسه الذي أخذت المدن المشرقية تسود فيها المسميات العربية في أسماء شخوصها الذين اعتنقوا الإسلام، وكذلك أسماء الأحياء والأزقة أخذت تحمل مسميات عربية، وأصبح العربي يلقب باسم المدينة التي يستوطنها لا اسم القبيلة التي ينتسب إليها مثل فلان بن فلان البخاري أو السمرقندي أو الشاشي.. الخ[41]، ومن العلماء الذين نزلوا وسكنوا سمرقند موسى بن نصير أبو عمران الثقفي السمرقندي، وصالح بن محمد البغدادي[42] وغيرهم الكثير.

ومن هنا نجد إن العرب باختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومناصبهم الإدارية والاقتصادية قد سكنوا سمرقند، التي كانت مركزاً للوجود العربي إذ لم يقتصر وجودهم على كونهم جند فقط وإنما كانوا من عامة الناس باختلاف مستوياتهم الاجتماعية سواء كانوا تجاراً أو رجال دين أو قادة عسكريين أو ولاة أو حتى خدم[43].

وعندما فتحت سمرقند بنى فيها قتيبة بن مسلم الباهلي مسجداً جامعاً وترك فيها جماعة من الدعاة منهم الضحاك بن مزاحم السلمي ليعلم الناس ليستوعبوا الدين الإسلامي ونشر مبادئه بين معتنقيه الجدد من السكان[44]، اسكن قتيبة بن مسلم العرب ما وراء النهر والحقيقة إن تبدل السياسة العسكرية للعرب الفاتحين في عهده من سياسة غارات الى سياسة استيطان في تلك المناطق كانت البادرة الحقيقية للمد العربي في مدينة سمرقند ولاسيما إن قتيبة قد حمل الناس من جند وعامة الناس مع عيالهم للسكن في سمرقند والذي قدر عددهم بأربعة آلاف مقاتل، وبهذا عُد أول استيطان منظم للقبائل العربية في المدينة[45].

إن فكرة نقل عيال قتيبة بن مسلم له أبعاد أخرى، فقد أراد أن يجد له مكاناً آمناً من بطش القبائل العربية فيما بينها في المنطقة العربية أو حتى خراسان، وأراد أن يستفاد من سمرقند مادياً ومعنوياً في حال إن رغب أن يستقر فيها ويشكل زعامة إدارية وسياسية مستقلة، إن اختياره سمرقند لما تملكه من مميزات طبيعية واجتماعية واقتصادية مهمة قد يستفاد منها كونها أرض بكر من الوجود العربي ووجوده هو وعياله فيها يمثل دافعاً قوياً لبقيت الجند والناس عموماً من العرب لأن يخطوا خطواته نفسها في الانتقال إليها والسكن فيها، كانت كلها أسباب مهمة وقوية لنشر الإسلام واللغة العربية والعادات والتقاليد، كما أن لوجود العرب وتدعيمه بنقل الناس مع عيالاتهم كان له أثر في إحداث الرهبة والقوة والقناعة لدى سكان سمرقند بأن العرب باقين وغير راحلين، وإنهم أصبحوا أهل البلد

وليسوا مجرد سلطة خارجية مسيطرة[46]، وإنهم سوف يقاسمونهم كل شيء ويتعايشون معهم بكل الظروف والحالات، فضلاً عن رغبة قتيبة بن مسلم منذ البداية بأن يكون مميزاً في إنجازاته وخططه عمن سبقه من القادة الفاتحين، وبعد أن خطى خطواته ونقل الناس مع عيالاتهم الى سمرقند واستقراره فيها مثبتاً أقدامه بدأ بتنظيم شؤون المدينة وفقاً لسياسته التي تصب لصالحه ولصالح الدولة الأموية[47]، وعند انتقال قتيبة بن مسالم الى سمرقند قد أفضى الى أثاث لم يرَّ مثله والى آلات لم يسمع بمثلها، فأراد أن يرى الناس عظم ما صنع ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهروا عليهم، فأمر ببناء دار ففرشت وفي صحنها قدور يرتقي إليها بسلالم[48].

وبعد أن استقر العرب الفاتحين في سمرقند أخذ أهالي هذه المناطق يفتخرون بأنهم من سلالة أولئك الفاتحين، ويبدو إن الانطلاقة كانت من العراق وذلك لأن لهجة عرب آسيا الوسطى تقترب تدريجياً أو تاريخياً من اللهجة العراقية والى حدٍ ما للهجة البدوية لوسط الجزيرة العربية[49].

وإن عرب الكوفة قد سكنوا سمرقند واثروا على سكان البلاد الأصليين من ناحية الفنون الزخرفية والكتابات عربية مثل الخط الكوفي، وهذا نوع من أنواع النماذج الحضاري ما بين العرب وسكان بلاد ما وراء النهر ولاسيما سمرقند[50]، وظلت سمرقند من حيث رقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة[51].

المبحث الثالث

الحياة العامة في مدينة سمرقند

أ: العادات والتقاليد:

إن لأهل مدينة سمرقند مكارم أخلاق خاصة بهم ولاسيما حبهم للغريب من أهل بخارى[52]، يرجعون أهلها الى رغبة في الخير واستجابة لمن دعاهم إليه مع غاية عالية وسلامة وسماحة بما ملكت أيديهم من شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعدة آلة كراع وبسالة وعلم وصلاح[53]، ويرجعون الى جمال بارع ورزانة وهم من الافراط في إظهار المروءة وتكلف القيام على أنفسهم ما يزيدون على سائر بلاد خراسان حتى تجف أموالهم[54]، ولسكان سمرقند طاعة عمياء لحكامهم[55].

ولهم أعياد خاصة بهم مثل النيروز والمهرجان، النيروز: هو عيد الربيع، وفي هذا اليوم يحتفل الناس لأنه بداية فصل جديد ويعتدل فيه المناخ ويرشون الأماكن بالماء اعتقاداً منهم إن ذلك يلطف حرارة الجو، وفي هذا اليوم يتبادل الناس الهدايا والزيارات ويخرج الناس الى المتنزهات والحدائق عامة، أما عيد المهرجان: هو أول أيام الشتاء ويأتي بعد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً، والناس يحتفلون به ويتبادلون الهدايا، وفي هذا اليوم تخلع ملابس الشتاء على موظفي الدولة، وتعيير العامة الناس فيه الملابس والفراش والآلات، ويقدم الناس الهدايا الى السلطان، ويخلع السلطان فيه ملابس الشتاء على كبار موظفي الدولة[56]، كان في مدن بلاد ما وراء النهر ولاسيما مدينة سمرقند آداب للرحلة والسفر وأخذت تدريجياً تنطوي تحت التقاليد الإسلامية.

فهم عند العزم للسفر كان على المسافر أن يرد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزم نفقته، ورد الودائع، وعند عودته لابد من أن يرسل من يبلغهم بعودته كي لا يباغتهم، فيرى ما يكره، ومن الأفضل أن لا يصل ليلاً، وكان عادة يرافق المسافر رفيق يئنس وحدته وأن يقتصد بالإقامة وآداب الضيافة[57].

بعد أن جاء الإسلام الى مدينة سمرقند أظهر هذه العادات بشكلها الأمثل ولاسيما رحلة الحج الى بيت الله الحرام[58]، كانوا أهلها كثيرو السفر لكسب العيش والرزق أو التجارة للمتعة والفائدة الثقافية والعلمية أو حب المغامرة والصيد وغيرها من أسباب الرحلة[59].

وبعد انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر ولاسيما سمرقند أخذت تتبع عادات وتقاليد مختلفة، مثلاً حينما يتوفى شخص من الأسرة كانت أسرة المحتضر يلتفون حوله لتوديعه، فهو قد يوصيهم بالألفة والمحبة فيما بينهم، وحينما يتوفى يقومون بغسله ويحفرون له حفرة القبر، لكن في البداية يحفرون له حفرة مؤقتة لدفنه في حديقة المنزل وعند غسل الميت يرش جسمه بماء الورد وتطلق البخور، ثم يأتي أهل الميت بشيخ لقراءة القرآن، وتعلق مصابيح خافتة الإنارة، وذكر إنهم كانوا يقومون بربط أصابع قدم الميت، ويلف رأسه بقطعة من القماش الأبيض ونقل جثته الى المسجد لتقام عليها صلاة الجنازة ثم يجمله أهله الى المدافن[60]، كان مجلس العزاء يستمر

لمدة ثلاثة أيام وكان عزاء الرجال يقام في المسجد القريب من بيت المتوفي، أما عزاء النساء فكان يقام في البيت، وترتدي النساء ملابس غير ملونة ومن غير حلي، وكانت زوجة المتوفي تلبس ملابس بيضاء طوال عمرها حداداً على زوجها، وفي كل يوم خميس بعد الوفاة يجتمع الأهل في منزل المتوفي ويقرأ الشيخ بعضاً من سور القرآن الكريم، وتقوم الأسرة بتوزيع نوع من الحلوى من الدقيق والسكر، وفي تمام السنة يذهب أهل الميت وأقاربه الى زيارة قبر المتوفي ويقضون اليوم كله هناك[61].

وبعد أن اعتنق سكان سمرقند الإسلام أخذوا يحتفلون بالمناسبات الإسلامية بطرقهم الخاصة كلاً حسب مقدرته، إذ كانت لهم عادات في استقبال شهر رمضان الكريم بالتكبير والتهليل، إذ كانت بيوت الأهالي والأمراء مزينة بالمصابيح المنيرة، وتقام موائد الإفطار للفقراء في كل يوم وليلة من ليالي رمضان، وتبقى الأبواب مفتوحة لاستقبال الناس ولاسيما المحتاجين لأخذ احتياجاتهم من طعام وماء أو صدقات مالية حتى نهاية صلاة الفجر[62]، والى جانب موائد الإفطار المقامة للفقراء والمحتاجين، كانت هناك مجالس ذكر ووعظ لقراءة القرآن وإقامة المناقب النبوية، إذ تكون الدعوة للجميع بين الطبقات العامة والخاصة، وأيضاً يقومون بالتصدق على الفقراء[63].

كانت نقود سمرقند الدراهم الاسماعيلية ومكسرة والدنانير ولهم دراهم تعرف بالمحمدية، وتركب من جواهر شتى من حديد ونحاس وفضة وغيرها[64].

ب: الملابس:

اشتهرت مدينة سمرقند منذ القدم بالمنسوجات الفاخرة والألبسة المختلفة من الصوف والغز وقراطق الكرابيس والبز ما يفضل عنهم[65]، وثياب سجكون والسمرقندية ومن دزك اللبود والجياد والأقبية[66]، واختلفت الملابس باختلاف الطبقات الاجتماعية في المدينة من حيث المظهر، فقد لبس الأغنياء الديباج والحرير، في حين ملابس الطبقة الفقيرة القراطق[67]. والقلانس[68].

ج: المأكولات:

من المأكولات في مدينة سمرقند الفالوذج[69] واللوزينج[70]، والأطعمة المعمولة من الجوز والسكر والكعك وغيرها، وكانوا يقومون بإعداد الخبز الناعم الى جانب الخبز من الحنطة والشعير، وكان أهلها يستعملون دسم الطعام وتكثر فغيها الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه مع الورد وأنواع الرياحين[71].

د: الزواج:

إن لكل جماعة أو قبيلة لها عادات وتقاليد خاصة في الزواج، ففي مدينة سمرقند فإذا ولد للرجل مولد ذكر قام بتربيته وتحمل مسؤوليته حتى يبلغ سن الرشد ثم يعطيه قوساً وسهماً ويخرجه من منزله الى منزل آخر لزوجة ويكون له أسرة يتحمل مسؤوليتها، ومن عادات أهل سمرقند كانوا يكشفون رؤوس بناتهم البكور فإذا أراد الرجل أن يتزوج ألقى على رأس إحداهن ثوباً فإذا فعل ذلك صارت زوجته[72].

وإن عدة المرأة المتوفي عنها زوجها إرثاً لأولاده من امرأة أخرى، إذا مات الرجل زوج أولاد يزوج الأكبر من أبنائه الأخرى بامرأته[73].

أما فيما يتعلق بمسألة زواج المرأة في بلاد المشرق الإسلامي عموماً بعد انتشار الإسلام فلم تشير المصادر التاريخية الى أهم العادات المتبعة في كل الحالتين، غير إننا نرى لم تكن تختلف عن سائر ما كان متبعاً في عموم البلاد الإسلامية.

هـ: الديانة:

لا يمكن الجزم بوجود دين رسمي في سمرقند، إنما كان دين الطبقة الحاكمة وهو الديانة الزرداشية[74] كما هو حال بلاد فارس، فضلاً عن وجود أتباع فرق الشنوية الذين تعرضوا لاضطهاد في بلاد فارس بعد أن وجدوا ملاذاً آمنا في بلاد ما وراء النهر وتمتعوا بنفس القدر من حرية العبادة كما هو الحال بالنسبة للديانة الزرداشية وسرعان ما وجدت الديانة الزرداشية موطئ قدم لها في مدينة سمرقند فانتشرت بها بيوت نار وبلغت منازل بدو الأتراك بانتشارها صوب الشمال الغربي حتى شواطئ بحر آرال الدين الزرداشية،

غذ قاموا بطرد رجال الدين البوذ من الأديرة حتى أصاب الأديرة البوذية الخواء، كما حدث لدير في بلاد سمرقند بعد أن كانت هذه الأديرة في قمة ازدهارها وتعج بالمريدين لهذه العقيدة[75].

بدأت القبائل التركية تعتنق ما ترغبه من عقائد وتؤمن بمبادئها إذ كانت المانوية[76] أكثر العقائد انتشاراً بين القبائل التركية في سمرقند لقربها من البوذية كونها العقيدة الجامعة ما بين الفكر المسيحي والديانة الزرداشية والعقيدة البوذية، ونظراً لسعة مساحتها فقد تعددت أحيائها، فقد كانت هناك أحياء خاصة تسكن فيها طائفة معينة من السكان، فقد كان في حي خاص يستقر فيه المانوية[77].

المبحث الرابع

الحياة الاجتماعية في مدينة سمرقند

أ: دور المرأة السمرقندية:

المرأة في بلاد ما وراء النهر عموماً وفي مدينة سمرقند خصوصاً حظيت بالاحترام والتقدير كأي امرأة مسلمة في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، إذ تخلصت من قيود التخلف والجاهلية كأختها العربية في البلاد العربية الإسلامية، غذ كانت تلك القيود تحد من حريتها وتبعدها عن إنسانيتها، وأصبح لها حق المساواة التامة مع الرجل، وأخذت تتمتع باستلالها الاقتصادي الذي يمثل الميراث جانباً منه[78]، ومنحها الإسلام حق العلم والنفقة في الدين، ومارست حقوقها السياسية والاجتماعية التي رفعت من سمو مكانتها كونها امرأة مسلمة تميزت عن مثيلاتها في المجتمعات القديمة[79]. لم نجد الكثير في المصادر التاريخية عن المرأة السمرقندية غير إنني أراها لم تكن تختلف عن سائر النساء في عموم البلاد الإسلامية.

ب. الألعاب ووسائل التسلية:

كانت الألعاب في مدينة سمرقند تؤكد على الألعاب الفكرية أكثر من غيرها، هذا فضلاً عن الألعاب الرياضية التي مارسوها كونهم يتمتعون بأجسام قوية، فهم بذلك يمارسون ألعاب القوى لتزيدهم بأساً وقوة، وكانت لعبة الرمي من أهم الألعاب الرياضية عندهم، وسابق الخيول والفروسية والمصارعة وحمل الأثقال[80].

وأجاز العلماء للناس أن يلهوا بالشيء الذي فيه مصلحة مثل الرماية وسباق الخيل فهما حلالاً لأنهما من وسائل الغزو ضد الكفار والجهاد، ومن وسائل التسلية الصيد ولعب الشطرنج، الصيد حلال للملوك من أجل الرياضة والنزهة ليتمتعوا ويلتمسوا منه طعاماً حلالاً، فإن الناس كانوا يشترون صيد الحصان العربي حتى يأكلوه حلالاً طيباً، وكل حيوان يدرب على الصيد يكون ما أصطاده حلالاً، وتدريب الحيوانات على الصيد موكول لرجال الصنعة حتى يقروا إن هذه الحيوانات صارت مدربة[81].

أما لعبة الشطرنج فهي لعبة الحكماء وأرباب الفهم وذوي الخواطر السريعة، فينبغي فيها الجهد كي يتقنها اللاعب، ويجب على الشخص الذي يلعبها أن يجعل نصب عينيه على قتل الملك فيجد في كل مرة حتى يلعب أحسن من سابقتها، وعليه أن يراقب كل أواع اللعب وينظر بإمعان الى جميع المربعات ليتقن إصابة الأهداف، ومن ألعابهم أيضاً ركوب السفن في الأنهار ويصطحبون العلماء[81].

الخاتمة:

بعد أن وقفنا الله سبحانه وتعالى بإنجاز هذا البحث الموسوم بـ(الحياة الاجتماعية في مدينة سمرقند)، توصلنا الى جملة من النتائج المهمة وعلى الشكل الآتي:

1. سميت مدينة سمرقند بهذا الاسم عندما غزاها أحد ملوك اليمن (شمريرعش) فهدمها، وقيل: كسر حائطها، فسميت سمركند، ومعنى كند: كسر، ومن ثم عربت الى سمرقند.
2. تقع في بلاد ما وراء النهر وهي قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه في موقع عرف بأنه جنة بحق.
3. كلها وسككها غلا قليلاً مفترش بالحجارة ومياهها من وادي الصغد.
4. تمكن قتيبة بن مسلم الباهلي من فتحها سنة 93هـ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

5. انتقل قتيبة بن مسلم وعياله إليها وأفضى الى اثاث لم يرَّ مثله فأراد أن يرى الناس عظم ما فتح ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهروا عليهم.
6. لأهل سمرقند مكارم الأخلاق خاصة بهم ولاسيما حبهم للغريب من أهل بخارى.
7. من المأكولات التي اشتهرت بها الفالوذج واللوزينج.
8. كانت المناوية أكثر العقائد الدينية انتشاراً بين القبائل التركية فيها لقربها من البوذية كونها العقيدة الجامعة ما بين الفكر المسيحي والديانة الزرداشية والعقيدة البوذية.
9. لم تختلف المرأة السمرقندية عن سائر النساء في عموم البلاد الاسلامية فهي تحررت من القيود التي تبعدها عن إنسانيتها ومنحها الاسلام حق العلم والنفقة في الدين.

الهوامش:

- شمربرعش بن افريقيتش: ابن ابرهة الرائش، سار بعد ان تولى الحكم الى الشرق... حتى دخل الصغد، فقتلوا وسبوا وهدمو المدينة، ينظر: ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن ايوب الحميري المعافري (ت218هـ)، التيجان ملوك حمير، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والابحاث اليمنية، صنعاء، 1928م، ج1.
- قتيبة بن مسلم الباهلي: الأمير أبو حفص احد الأبطال الشجعان ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي، هو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند، وكانوا قد نقضوا ارتدوا، للتفاصيل ينظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، ط2، مؤسسة الرسالة ،بيروت، 1998م، ج4 .
- عبد الرحمن بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي:، يكنى أبا صالح، شهد مع أخيه قتيبة غزوات كثيرة، للمزيد من التفاصيل ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل محمد ابراهيم، ط3، دار المعرفة، القاهرة، 1979م.
- الضحاك بن مزاحم السلمي الهلالي البلخي الخراساني، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا القاسم، المفسر المحدث النحوي، كان يؤدب الأطفال، ويقال: كان في المدرسة أو المكتبة ثلاثة آلاف صبي، كان يطوف عليهم وهو راكب الحمار، وقد ذكر إنه معلم الجماعة وهو من اشرف المعلمين، للمزيد ينظر: ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت245هـ)، المحبر، طبعة حيد أباد الدكن، الهند، 1942م .
- السباعية: لفظة بمعنى البدن أي الكامل البدن، للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1956م، ج3 .
- القراطق: جمع قرطق وتعني السترة أو القميص، لمزيد من التفاصيل ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1 .
- الفالوذج: مصنوع من الدقيق الخالص والعسل، يخلط العسل والسمن جميعاً ثم يطبخ، للمزيد من التفاصيل ينظر: السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد (ت581هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992م،ج2 .
- اللوزينج: نوع من الحلواء من أصل اللوزينة، اللوز معروف معرب، وكذا اللوزينج وحشو اللوزينج، لمزيد من التفاصيل ينظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م،ج1.

الزرادشية: نسبة الى زرادشت بن نورشن بن قدارمق حفيد الملك موشهر أدعى زرادشت هذه النبوة بين المجوس في عهد ملك فارس بشتامب، للمزيد من التفاصيل ينظر: المسعودي، أبو الحسن بن علي (ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د.م، 1971م ، ج1.

المناوية: هم أتباع المعتقد المانوي لمؤسسه ماني بن فانق بن أبي برزام، ظهر في فارس في عهد الملك سابور بن أردشير، ادعى النبوة وكانت التعاليم التي جاء بها لمعتقده مزيجاً من الديانة المجوسية والنصرانية، للمزيد من التفاصيل ينظر: البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن ظاهر (ت429هـ)، الفرق بين الطرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة د.ت .

المصادر والمراجع:

1- ابن الاثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، ط3، دار احياء التراث العربي،بيروت، 1989م،ج2 ج3ج4 .

2- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت749هـ)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مكتبة الشعبية، بيروت – د.ت ،ج1.

3- ابن إياس، محمد بن احمد (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1982م، ج1.

4- ابن بطوطة، شمس الدين عبد الله محمد بن اللواتي الطنجي (ت779هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، مطبعة المعارف الجديدة،ج1، الرباط، 1997م،ج1.

5- ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت245هـ)، المحبر، طبعة حيد أباد الدكن، (الهند – 1942م).

6- ابن حوقل، أبو القاسم محمد الموصلي (ت367هـ)، صورة الأرض، دار صادر، (بيروت، 1938م)، ج1ج2 .

7- ابن خرداذبة، ابو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت300هـ)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889م، ج1 .

8- ابن فضلان، احمد بن العباس بن راشد (ت311هـ)، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلات الى بلاد الترك والروس، دار السويدي، أبو ظبي – 2003م .

9- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1956م.

10- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن ايوب الحميري المعافري (ت218هـ)، التيجان ملوك حمير، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والابحاث اليمنية، صنعاء، 1928م، ج1.

11- أبو سعيد المغربي، علي بن موسى (ت658هـ)، الجغرافية، تحقيق: اسماعيل العربي، مكتبة البخاري للطباعة والنشر، بيروت – 1970م، ج1 .

12- الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت340هـ)، المسالك والممالك , دار صادر، بيروت، 1927م، ج1.

13- ايليسف، نيكنيا، الشرق الاسلامي في العصر الوسيط، ترجمة: منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، 1986م.

14- بارتولد، فاسيلي فلاديمير، تركستان من الفتح الاسلامي حتى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، اشرف على ضبطه: قسم التراث العربي .

15- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن ظاهر (ت429هـ)، الفرق بين الطرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة – د.ت) 1999.

16- البيهقي، أبو الفضل محمد بن حسين (ت470هـ)، تاريخ البيهقي، تحقيق: يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1956م، ج1 .

17- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

18- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، ط2، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1960م، ج1 .

19- الخالدي، احمد أرشيد، المدخل لدراسة الآثار والمدن الاسلامية، ط1، دار المعتز، الأردن، عمان، ط1، 2010.
20- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، ط2، مؤسسة الرسالة، (بيروت – 1998م).
21- الريس، رياض نجيب، الرحلة الى سمرقند وزنجبار، ط1، دار ناشرون، بيروت، 1997م .
22- زكي بك، احمد، قاموس الجغرافية القديمة، ط1، المطبعة الاميرية الكبرى، بولاق، 1899م
23- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد (ت581هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992م.
24- الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، المكتبة العصرية، بيروت – 2009م، م2 .
25- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل محمد ابراهيم، ط3، دار المعرفة، القاهرة، 1979م، ج7 .
26- عبد الباقي، احمد، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، د.م – د.ت .
27- العلي، صالح احمد، امتداد العرب قبل الاسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1981م.
28- العنبكي، شيماء فاضل عبد الحميد، أحوال العرب العامة في بلاد ما وراء النهر من الفتح العربي الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، جامعة بغداد، 2014م .
29- الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف، الدولة المستقلة في الشرق الاسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م .
30- فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات،مطابع الرسالة،(الكويت–1989م)،ج1 .
31- قره داغي، كامران، أبناء عمومتنا في الاتحاد السوفيتي، بحث منشور، مجلة التضامن، العدد14، 1983م .
32- الكعكي، يحيى احمد، معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1981م .
33- كي، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ط1،مطبعة الحيدرية، بغداد،1954م .
34- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي (ت285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ج3 .
35- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي، تحقيق: رفعت البدراوي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت – د.ت، م2 .
36- المسعودي، أبو الحسن بن علي (ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (د.م – 1971م).
37- المقدسي، ابو عبد الله شمس الدين محمد بن ابي بكر (ت375هـ)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1987م، ج1 .
38- النجار، محمد الطيب، تاريخ العالم الإسلامي في الشرق، مكتبة المعارف، الرياض، 1985م.
39- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت733هـ)، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1976م، ج21 .
40- الهمذاني، أبو بكر احمد بن محمد الفقيه (ت290هـ)، مختصر كتاب البلدان، دار صادر، ليدن 1967م .
41- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995م، م1 .
42- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت292هـ)، كتاب البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، م1 .